لويس بادجيت

Telegram:@mbooks90

ألعاب المستقبل

ترجمة: رفيدة جمال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألعاب المستقبل

تأليف

لويس بادجيت

ترجمة

رفيدة جمال

منشورات ويلز

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنويه

«ألعاب المستقبل»: قصة كلاسيكية من أدب الخيال العلمي، نُشرت لأول مرة في مجلة «Astounding Science Fiction» في عام 1943. بعنوان: «Mimsy Were The Borogoves» (كل الببغاوات كانت حزينة)، كتبها «Henry Kuttner» (هنري كتنر) بالتعاون مع زوجته «C. L. Moore» (كاثرين مور) تحت الاسم المستعار «Lewis Padgett» (لويس بادجيت). والعنوان هو سطر من القصيدة الشهيرة «Jabberwocky»(1) (جابروكي) للكاتب الإنجليزي «Lewis Carroll» (لويس كارول)، والتي ظهرت لأول مرة في روايته الكلاسيكية «Through The Looking Glass» (أليس عبر المرآة) عام 1871. وقد اقتُبست القصة في فيلم بعنوان «The Last Mimzy» صدر عام 2007.

لا فائدة تُرجى من محاولة وصف «أونثاهورستن» أو بيئته، لأن ملايين السنوات قد مرت منذ عام 1942م، كما أنه لم يكن يعيش على الأرض. كان يقف في مكان يشبه المختبر. ويستعد لاختبار آلة الزمن التي صنعها.

بعدما شغّل الطاقة، انتبه فجأة إلى أن الصندوق فارغ. وذلك لن يجدي إطلاقًا، فالجهاز يحتاج إلى تحكُّم؛ جسم صلب ثلاثي الأبعاد يتفاعل مع ظروف زمن آخر. وإلا فإن «أونثاهورستن» لن يتمكن بعد عودة الآلة من تحديد المكان والزمان الذي رجعت منه. بينما وجود الجسم الصلب في الصندوق سيعرّضه تلقائيًا لـ«الأنتروبيا» وقصف الأشعة الكونية في الزمن الآخر، ومن ثم سيتمكن «أونثاهورستن» من

Telegram:@mbooks90

قياس التغيرات، سواء النوعية او الكمية، عند رجوع الآلة. وتؤدي الحاسبات عملها وتشير إلى الفترات الزمنية التي زارها الصندوق لفترة قصيرة، سواء أكانت عام 1.000.000م، أو 1000م، أو السنة الأولى بعد الميلاد، حسب الحالة.

ورغم عدم أهمية الأمر، فإن «أونثاهورستن» رآه شأنًا جديًا؛ إذ كانت له نزعات طفولية أحيانًا.

أخذ الصندوق يتوهج ويهتز. وكان على «أونثاهورستن» التصرف بسرعة، فتلفّت حوله بهلع، ثم هرع إلى الغرفة التالية، وشرع يبحث في سلة التخزين. ووجد مجوعة من الأشياء الغريبة؛ ألعاب مهملة كان يلعب بها ابنه «سنوين»، والتي جلبها بعدما انتقل من الأرض عقب إتقانه التقنية المطلوبة. حسنًا، لم يعد «سنوين» بحاجة إلى تلك الأغراض البالية، فقد هُيئ ونبذ ألعاب الطفولة. كما أن التجربة كانت أكثر أهمية، حتى وإن احتفظت زوجة «أونثاهورستن» بالألعاب لأنها تحمل قيمة عاطفية.

غادر «أونثاهورستن» الغرفة وألقى بالألعاب في الصندوق، وما كاد يغلق الغطاء بقوة حتى انبعث وميض إشارة التحذير. واختفى الصندوق. وتأذت عينا «أونثاهورستن» من جرّاء انطلاقه.

طفق ينتظر. وطال انتظاره.

في النهاية، فقد الأمل وصنع آلة زمن أخرى، بالخطوات ذاتها. لم يغضب «سنوين» ولا أمه من فقدان الألعاب القديمة، لذا أفرغ «أونثاهورستن» سلة

التخزين، وألقى بقية ألعاب ابنه في صندوق آلة الزمن الثانية.

ووفقًا لحساباته، فينبغي أن يظهر هذا الجهاز على الأرض في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. وإذا حدث ذلك، سيظل الجهاز هناك.

شعر «أونثاهورستن» بالاستياء، واعتزم عدم صُنع آلات زمنية أخرى. ولكن فات الأوان. هناك جهازان الآن، وأولهما...

***

وجد «سكوت باراداين» الصندوق عندما تغيّب من مدرسة «جليندل» الابتدائية. كان اختبار في مادة الجغرافيا سيُعقد في ذلك اليوم، ولم يرَ «سكوت» أي جدوى في حفظ أسماء الأماكن، وهو أمر مفهوم تمامًا في عام 1942. بالإضافة إلى ذلك، كان يومًا ربيعيًا دافئًا، تتخلله نسمات باردة، فتمدد الصبي في أحد الحقول وأخذ يحدق في السحب العابرة حتى غلبه النوم. فلتذهب الجغرافيا إلى الجحيم!

غفا «سكوت».

عند الظهر، قرصه الجوع، فحملته قدماه القصيرتان إلى متجر قريب. وهناك، تصامَّ عن صرخات معدته الخاوية، وشرع ينتقي بعناية ما يريد بقروشه الزهيدة. ثم اتجه إلى نُهير ليتناول الطعام.

بعد التهامه الجبن والشوكولاتة والبسكويت، وارتشافه زجاجة الصودا حتى آخر قطرة، طفق يصطاد الشراغيف(2) ويفحصها بفضول علمي. ثم قاطعه سقوط شيء على ضفة النُهير، مرتطمًا بالأرض الطينية بالقرب من الماء، فانطلق «سكوت» ليتحقق منه متلفتًا حوله في حذر.

كان صندوقًا. في الواقع، كان الصندوق المُرسَل من المستقبل. لم يُبالِ «سكوت» بالأجهزة العجيبة الملتصقة به، رغم اندهاشه من التحامها واحتراقها بذلك الشكل. وأخذ يتأمله. ثم تفحصه بمطواته واستكشفه بحماس وفضول. لم يكن هناك أحد بالجوار.

من أين جاء الصندوق؟ لا بد أن شخصًا تركه هنا، وحرّكته التربة الزلقة من مكانه.

أخيرًا حسم «سكوت» أمره، وقال: «إنه صندوق حلزوني الشكل».

لكنه كان مخطئًا. صحيح أن شكله يشبه الحلزون، ولكنه لم يكن كذلك، بسبب اعوجاج أبعاده. ولو أن الشيء كان طائرة نموذجية، بغض النظر عن تعقيدها، فما كان ليشكل لغزًا لـ«سكوت». ولكنه كان يمثل معضلة حقيقية. وبحدسه شعر «سكوت» أن الجهاز كان أكثر تعقيدًا من المحرك الزنبركي الذي فككه ببراعة يوم الجمعة الماضية.

بالطبع لم يُخلَق بعد الصبي الذي يترك صندوقًا مغلقًا وشأنه. تحسس «سكوت» الجهاز بدقة. كانت زواياه غريبة تشبه الدوائر الكهربائية القصيرة. ولهذا السبب... آه! انكسرت السكين. مص «سكوت» إصبعه، وأطلق شبة.

ربما يكون صندوقًا موسيقيًا.

لم ييأس «سكوت». هذه أجهزة لو رآها «أينشتاين» و«شتاينميتز»(3) لأصابهما الجنون! *بالطبع كانت المشكلة تكمن في عدم دخول الصندوق بالكامل إلى تسلسل الزمكان الموجود فيه «سكوت»، وبالتالي يصعب فتحه.* على أي حال، تمكّن «سكوت» أخيرًا من فتحه بعدما ضرب بحجر الجزء المتبعج منه.

Telegram:@mbooks90

في واقع الأمر، ضربه في نقطة اتصاله *بالبعد الرابع*، فانفك *الاعوجاج الزمكاني* المتقيد به. ودوّت فرقعة خفيفة. واهتز الصندوق قليلًا ثم كف عن الحركة، وصار موجودًا بشكل كامل.

وفتحه «سكوت» بسهولة.

كان أول ما لفت نظره هو قبعة محبوكة ناعمة، لكنه ألقاها من دون اهتمام. كانت مجرد قلنسوة. ثم التقط مكعبًا بلوريًا شفافًا، كان صغيرًا، حتى إنه احتواه براحة يده، ولكنه لم يفهم كيف ضم آلات معقدة داخله برغم صغره. وبعد هنيهة تبيّن «سكوت» الأمر؛ كان الشكل البلوري نوعًا من العدسات المكبرة، تكبر الأشياء داخل المربع بشكل هائل، وكانت أشياء غريبة حقًا. أشخاص متناهيو الصغر يتحركون كالآليين، لكن على نحو أكثر سلاسة. وأخذ «سكوت» يتابعهم كأنه يشاهد مسرحية. وجذبت ملابسهم اهتمامه، لكنه كان مأخوذًا أكثر بأفعالهم، إذ انخرطوا في تشييد منزل بمهارة. تمنى «سكوت» أن تشتعل فيه النيران، حتى

يراهم يخمدونها.

اندلعت النيران في البناء غير المكتمل. فأخمد الآليون الحريق، باستخدام مجموعة كبيرة من الأجهزة الغريبة.

اندمج «سكوت» سريعًا، لكن ساوره بعض القلق؛ كان الأشخاص الصغار يطيعون أفكاره! ولم يكد يدرك ذلك، حتى انتابه الفزع، وألقى المكعب بعيدًا.

في منتصف الطريق على الضفة، أعاد التفكير ورجع. كان جزء من المكعب البلوري مغموزًا في الماء، يتلألأ تحت أشعة الشمس. وبغريزة الطفل التي لا تخطئ أحس «سكوت» أنه لعبة. ولكنه لم يلتقطه على الفور. بل عاد إلى الصندوق وتفحص بقية المحتويات.

اكتشف بعض الأجهزة المدهشة. ومرت فترة الظهيرة بسرعة، وأخيرًا أعاد «سكوت» الألعاب إلى الصندوق وحمله إلى البيت. ووصل إلى باب المطبخ لاهثًا محمر الوجه.

أخفى كنزه خلف الخزانة في غرفته بالطابق العلوي. أما المكعب البلوري فقد دسه في جيبه المنتفخ بخيط، وبكرة أسلاك، وقرشين، ورقائق قصدير، وطابع متسخ، وقطعة من حجر «الفلسبار». أقبلت شقيقته «إيما»، البالغة من العمر عامين، تتعثر في مشيتها في الردهة، وألقت عليه التحية.

أومأ «سكوت» قائلًا:

- مرحبًا أيتها الحلزونة.

كان يبلغ السابعة وبضعة أشهر، ويعامل «إيما» بتكبر وترفُّع، لكنها لم تكن تعرف الفارق. بجسد صغير مكتنز وعينين واسعتين، جلست على السجادة ونظرت بحزن إلى فردتي حذائها.

- هلّا ربطتهما يا «سكوتي»، من فضلك؟

قال «سكوت» بلطف:

- حمقاء!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنه ربط فردتي الحذاء.

- هل العشاء جاهز؟

أومأت «إيما» بالإيجاب.

- أريني يديك.

ولدهشته، كانتا نظيفتين تمامًا، ومع ذلك ربما لم تكونا معقمتين. تأمل «سكوت» كفيه. كانت الشراغيف قد تركت آثارها. فاتجه عابسًا إلى الحمام.

***

جلس «دينيس باراداين» وزوجته «جاين» في غرفة المعيشة بالطابق السفلي يتناولان الشراب قبل العشاء. كان «دينيس» في أواسط العمر، وقد خالط الشيب شعره، وله وجه نحيف وشفتان مزمومتان، وكان يُدرِّس الفلسفة في الجامعة. وكانت «جاين» سيدة حسناء صغيرة البنية وأنيقة وغامضة. قالت وهي ترتشف من كأس «المارتيني»:

- هل أعجبك حذائي الجديد؟

غمغم «بارادين» بشرود:

- نخب الجريمة! ماذا؟ حذاء؟ ليس الآن. انتظري حتى أنهي الكأس. لقد مررت بيوم عصيب.

- بسبب الامتحانات؟

- نعم. شباب مفعم بالحماس وآمال الرجولة. ليتهم يموتون وهم يعانون أشد الآلام، إن شاء الله!

قالت «جاين» برجاء:

- أريد الزيتونة.

قال «بارادين» بيأس:

- أعلم. لقد مرت سنوات على آخر مرة تذوقت فيها واحدة. أقصد في كأس

«مارتيني». حتى لو وضعت ست حبات في كأسك، لن تشبعي أبدًا.

- أريد زيتونتك أنت. إنها ترمز لرابطة الدم. هذا هو السبب.

تأمل «باراداين» زوجته باستياء ثم وضع ساقًا على ساق.

- تتحدثين مثل أحد طلابي.

قالت «جاين» بشراسة:

- ربما مثل تلك الوقحة «بيتي داوسن»؟ أما زالت تحدق فيك بتلك الطريقة الكريهة؟

- نعم. إن الفتاة اضطراب نفسي يمشي على قدمين. لحسن الحظ أنها ليست ابنتي. ولو كانت...

ثم أومأ بنظرة ذات مغزى واستطرد:

- وعي جنسي وأفلام كثيرة. أظن أنها لا تزال تعتقد أن بوسعها الحصول على درجة النجاح باستعراض ساقيها أمامي، واللتان بالمناسبة هزيلتان.

عدلت «جاين» تنورتها بملء الفخر. وأنزل «باراداين» ساقه عن الأخرى، وصب كأسًا جديدة من «المارتيني».

- صدقًا، لا أرى فائدة تُرجى من تدريس الفلسفة لهؤلاء القرود. إنهم جميعًا في سن غير مناسبة. لقد فُرضت عليهم سلفًا أنماط حياتهم وأساليب تفكيرهم. إنهم ضيقو التفكير بصورة مرعبة، لكنهم سينكرون ذلك. الأشخاص الوحيدون القادرون على فهم الفلسفة هم البالغون الناضجون أو الأطفال مثل «إيما» و«سكوتي».

قالت «جاين» في رجاء:

- حسنًا، لا تسجل «سكوتي» في مادتك. إنه ليس مستعدًا لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة. لست أدعم صغار العباقرة، خصوصًا عندما يكون طفلي من بينهم.

علّق «باراداين» ساخرًا:

- ربما سيبرع «سكوتي» في الفلسفة أكثر من «بيتي داوسن».

قالت «جاين» بشرود:

- ومات عجوزًا واهنا في سن الخامسة(4). أريد زيتونتك.

- تفضلي. أعجبني الحذاء بالمناسبة.

- شكرًا. ها قد جاءت «روزالي». هل العشاء جاهز؟

أجابت «روزالي» وهي تحوم هنا وهناك:

- كل شيء جاهز، يا سيدة «باراداين». سأستدعي الآنسة «إيما» والسيد «سكوتي».

- سأحضرهما.

أطل «باراداين» برأسه في الغرفة المجاورة وصاح قائلًا:

- هيا لتناول الطعام أيها الصغيران!

ركضت قدمان صغيرتان عبر درجات السلم. وأطل «سكوت»، نظيفًا ومتألقًا، تنتصب من شعره خصلة نافرة. تبعته «إيما»، تهبط الدرج بحذر. وفي منتصف المسافة، تخلت عن النزول بشكل مستقيم وعكست الحركة، وأكملت المهمة كما يتحرك القرد، وقد أعطت حركة مؤخرتها الصغيرة انطباعًا بجدية محاولتها. راقبها «باراداين»، مأخوذًا بالمنظر، إلى أن ارتطم به «سكوت» فأطاح به للخلف.

صاح «سكوت»:

- مرحبًا يا أبي!

استعاد «باراداين» توازنه ونظر إليه بوقار.

- مرحبًا. هيا لتساعدني في وضع أطباق العشاء. كدت تخلع مفاصلي.

لكن «سكوت» كان قد توجه بالفعل إلى الغرفة المجاورة، حيث داس على حذاء «جاين» الجديد بحماس، وتمتم معتذرًا، ثم اندفع ليأخذ مكانه على مائدة العشاء. وتبعه «باراداين» بحاجب مرفوع، بينما يد «إيما» المكتنزة تستميت في الإمساك بسبابته.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

- ترى ماذا كان يفعل الشيطان الصغير؟

تنهدت «جاين» قائلة:

- ربما شيء سيئ. مرحبًا يا عزيزتي. دعيني أرى أذنيكِ.

- إنهما نظيفتان. لقد لعقهما «ميكي».

- حسنًا، لسان «الإيرديل»(5) أكثر نظافة من أذنيك.

تأملتها «جاين» بفحص سريع.

- على أي حال، ما دام يمكنك السماع، فالأوساخ سطحية فقط.

- سطحية؟

- أقصد قليلة.

قادت «جاين» ابنتها إلى الطاولة ووضعت قدميها على كرسي مرتفع. كانت «إيما» قد بدأت تتناول الطعام مع بقية أفراد العائلة منذ فترة قريبة، ولاحظ «بارادين» مدى فخرها بهذه الفرصة. لقد أخبروها أن الرضع فحسب هم من يسكبون الطعام على أنفسهم. ولذلك، حرصت على نقل الملعقة إلى فمها بحذر شديد؛ ما جعل «بارادين» يشعر بالتوتر متى شاهدها تفعل ذلك.

قال مقترحًا وهو يُرجِع المقعد للخلف كي تجلس «جاين»:

- سيكون السير الناقل هو الشيء المناسب لـ«إيما». دلاء صغيرة من السبانخ تصل إلى وجهها في فترات محددة.

واصلوا تناول العشاء في هدوء، حتى حانت من «بارادين» التفاتة إلى طبق «سكوت».

- ما الخطب؟ هل أنت مريض؟ هل أكلت حتى التخمة في الغداء؟

نظر «سكوت» بتأنٍ إلى الطعام المتبقي أمامه. ثم قال مفسرًا:

- لقد أكلت كل ما أحتاج إليه يا أبي.

قال «بارادين»:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- عادةً تأكل كل ما تطاله يداك، وقدرًا أكبر. أعلم أن الصبية في مرحلة النمو يحتاجون إلى أطنان من الغذاء يوميًا، ولكنك تقل عن المستوى المعتاد الليلة. هل أنت بخير؟

- أجل. لقد أكلت حقًا كل ما أحتاج إليه.

- كل ما تريده؟

- بالتأكيد. إنني آكل بشكلٍ مختلف.

سألته «جاين»:

- هل علّموك ذلك في المدرسة؟

هز «سكوت» رأسه برزانة نافيًا.

- لم يُعلّمني أحد. اكتشفت ذلك بنفسي. استخدمت البصاق.

قال «بارادايْن» مقترحًا:

- حاول مجددًا. استخدمت الكلمة الخطأ.

- «اللعاب»؟

- صحيح. المزيد من إنزيم «الببسين»؟ هل يوجد إنزيم «ببسين» في العصارة اللعابية يا «جاين»؟ لقد نسيت.

علّقت «جاين»:

- هناك سم في عصارتي اللعابية. لم تهرس «روزلي» البطاطس جيدًا مجددًا.

لكن «بارادايْن» كان مهتمًا بما يقوله «سكوت».

- أتقصد أنك تستخلص كل شيء ممكن من الطعام، ولا تهدر شيئًا، وتأكل بكمية أقل؟

فكر «سكوت» وقال:

- أظن ذلك. ليس فقط البصـ... اللعاب. بل إنني - بطريقة ما - أقيس الكمية التي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ينبغي وضعها في فمي دفعة واحدة، وأي المواد يجب أن أمزجها. لست أدري. إنني أفعل ذلك بشكل تلقائي.

همهم «بارادايز»، وسجل في ذهنه هذه الملاحظة ليتحقق منها لاحقًا.

- فكرة ثورية إلى حد ما.

إن الأطفال كثيرًا ما تراودهم أفكار غريبة، ولكن قد لا تكون تلك الفكرة بعيدة عن الصواب. زم شفتيه.

- في النهاية، أعتقد أن أساليب الناس في تناول الطعام تختلف، وكذلك ما يأكلونه. إن ابننا يُظهر علامات نبوغ يا «جاين».

- حقًا!

- لقد أشار توًا إلى فكرة سديدة في علم التغذية. هل اكتشفتها بنفسك يا «سكوت»؟

أجاب الصبي بصدق:

- بالتأكيد.

- من أين واتتك تلك الفكرة؟

قال «سكوت» مراوغًا:

- أوه، أنا... لست أدري. أظن أنه لا يهم.

شعر «بارادايز» بخيبة أمل كبيرة.

- ولكن بالتأكيد...

صاحت «إيما»، كأنما استحوذت عليها بغتة نوبة من الشقاوة:

- بببصاق! بصاق!

حاولت توضيح ذلك، لكنها لم تنجح سوى في إسالة اللعاب على مريلتها.

سلّمت «جاين» أمرها، وساعدت «إيما» ووبختها، بينما أخذ «بارادايز» يتأمل

«سكوت» باهتمام وحيرة. ولكن لم يحدث شيء آخر إلا بعد العشاء، في غرفة المعيشة.

***

- هل لديك واجب منزلي؟

أجاب «سكوت» واحمرار وجهه يفضحه:

- كلا.

ولكي يغطي حرجه، أخرج من جيبه جهازًا وجده في الصندوق، وشرع في تفكيكه. فكانت النتيجة مكعبًا رباعي الأبعاد مزينًا بالخرز. لم يلحظه «باراداين» في البداية، ولكن انتاب الفضول «إيما»، وأرادت أن تلعب به.

قال «سكوت» بلهجة آمرة:

- لا. ابتعدي أيتها الحلزونة. بوسعكِ مشاهدتي.

أخذ يعبث بالخرز، فأصدر أصواتًا هادئة وجذابة. مدت «إيما» سبابتها البدينة وصرخت.

قال «باراداين» محذرًا:

- «سكوتي».

- لم أؤذِها.

قالت «إيما» بصوت باكٍ:

- لقد لسعتني.

رفع «باراداين» رأسه. وحدّق في عبوس. ما هذا بحق..

سأله:

- هل هذا معداد؟ أرني إياه، من فضلك.

بتردد جلب «سكوت» الجهاز إلى والده. وحدقَ «بارادين». كان حجم المعداد

يزيد على 30 سنتيمترًا مكعبًا، ويتكون من أسلاك رفيعة وصلبة تتشابك في أماكن عدة، غُلِّق عليها خرز ملون، يمكن تحريكه ذهابًا وإيابًا ومن دعامة إلى أخرى، حتى عند نقاط التقاء الأسلاك. ولكن لا يمكن لخرزة مثقوبة أن تعبر الأسلاك المتشابكة...

إذن، يبدو أن الخرز غير مثقوب. نظر «باراداين» عن كثب. كان يمتد حول كل خرزة صغيرة شق عميق، بحيث يمكن تدويرها وتحريكها على السلك في الوقت نفسه. حاول «باراداين» سحب واحدة منها، لكنها التصقت كمغناطيس. هل هي حديدية؟ إنها تبدو بلاستيكية.

لم يكن «باراداين» عالِمًا في الرياضيات، لكنه لاحظ أن الزوايا التي شكلتها الأسلاك غريبة وغير منطقية؛ أشبه بالمتاهة. ربما كان هذا الجهاز لغزًا.

- من أين حصلت عليه؟

أجاب «سكوت» بشكل ارتجالي:

- لقد أعطانيه العم «هاري» يوم الأحد الماضي، عندما جاء يزورنا.

كان العم «هاري» خارج المدينة، و«سكوت» يعرف ذلك. في سن السابعة، يتعلم الصبية سريعًا أن سلوكيات الكبار تتبع نمطًا محددًا، وأنهم يدققون في مقدمي الهدايا. بالإضافة إلى أن العم «هاري» لن يعود إلا بعد عدة أسابيع؛ وكان من العسير على «سكوت» تخيُّل انتهاء هذه الفترة. كما كان السماح له بالاحتفاظ باللعبة أكثر أهمية من اكتشاف كذبته في النهاية.

شعر «بارادين» ببعض الارتباك عندما حاول تحريك الخرز. كانت الزوايا غير منطقية إلى حد ما، وكأنها لغز. فكان إذا حرك خرزة حمراء على السلك لا تصل إلى نقطة الالتقاء. كان المعداد متاهة غريبة، ولكنه بلا شك أداة تعليمية. وشعر «بارادين» أنه لن يتحلى بالصبر الكافي للتعامل معه.

أما «سكوت» فقد انتقل إلى زاوية الغرفة، وأخذ يحرك الخرز بتأوه متحسسًا إياه؛ إذ كان يلسع يده حين يختار الخرز الخطأ أو يحاول تحريكه في الاتجاه غير الصحيح. وفي النهاية، صاح بفرح:

- فعلتها يا أبي!

- ماذا؟ دعني أرَ.

لم يرَ «بارادايـن» أي تغيُّر في الجهاز، لكن «سكوت» أشار وابتسم.

- جعلتها تختفي.

- لا، إنها ما زالت هنا.

- تلك الخرزة الزرقاء. اختفت الآن.

لم يصدق «بارادايـن» عينيه وابتسم بسخرية. وتمعن «سكوت» في الإطار مجددًا، وأخذ يختبره. هذه المرة لم يشعر بأي لسعات، حتى الطفيفة منها. لقد علّمه المعداد الطريقة الصحيحة، وترك له اللغز ليحله بمفرده. وبطريقة ما بدت الزوايا الغريبة للأسلاك أقل تعقيدًا الآن.

كانت لعبة تعليمية ممتازة...

وتراءى لـ«سكوت» أنها تعمل تمامًا مثل المكعب البلوري. وتذكّر الجهاز، فأخرجه من جيبه وسلّم المعداد إلى «إيما»، التي عقدت الفرحة لسانها. وانخرطت في تحريك الخرز، هذه المرة من دون اعتراض على اللسعات، التي كانت في الواقع ضئيلة جدًا. ولما كانت تتمتع بالقدرة على التقليد والمحاكاة، فإنها نجحت في جعل إحدى الخرزات تختفي بسرعة مثلما فعل «سكوت». وعادت الخرزة الزرقاء مجددًا، لكن «سكوت» لم يلحظها، إذ كان مستغرقًا في التفكير، وانسحب إلى مقعد وثير بجانب الأريكة، وأخذ يلهو بالمكعب.

كان هناك أشخاص صغار داخل المكعب؛ دُمى صغيرة متضخمة بفعل الخواص المكبرة للمكعب البلوري. أخذوا يتحركون بشكل صحيح. وبنوا منزلًا. ثم اشتعلت فيه النيران، وبدت ألسنة اللهب حقيقية، ووقفوا ينتظرون. قال «سكوت» بإلحاح:

- أخمدوها.

ولكن لم يحدث شيء. أين سيارة الإطفاء الغريبة، ذات الأذرع الدوارة، التي ظهرت من قبل؟ ها هي. جاءت تُحلّق داخل المكعب وتوقفت. فحثها «سكوت» على المضي قُدمًا.

كان الأمر ممتعًا، مثل عرض مسرحي، لكنه أكثر واقعية. وأخذ الأشخاص الصغار ينفذون الأوامر التي يفكر فيها «سكوت». وكان إذا ارتكب خطأً، ينتظرون حتى يتوصل للطريقة الصحيحة. بل إنهم صاغوا له مشكلات جديدة...

كان المكعب لعبة تعليمية مفيدة للغاية أيضًا. وشرع يُعلِّم «سكوت» بسرعة مذهلة وبصورة ممتعة. بيد أنه لم يلقنه معرفة جديدة حتى الآن؛ لم يكن مستعدًا آنذاك، وسيلقنه إياها في وقت لاحق.

***

سئمت «إيما» من المعداد ومضت تبحث عن «سكوت». ولم تجده، حتى في غرفته، لكن الخزانة أثارت اهتمامها. واكتشفت الصندوق. كان يحتوي على دُمية، التي لاحظها «سكوت» ولكنه تجاهلها هازئًا. وصاحت «إيما» بفرح، وجلبت الدمية إلى الطابق السفلي، وجلست القرفصاء في وسط الغرفة وشرعت في تفكيكها.

- ما هذا يا عزيزتي؟

- السيد «دب»!

من الواضح أنها لم تكن السيد «دب»، وهي دمية بلا عينين ولا أذنين، لكنها مريحة بسبب فروها الناعم واكتنازها. غير أن «إيما» كانت تُطلِق على أي دمية «السيد دب».

قالت «جاين» بتردد:

- هل أخذتها من فتاة أخرى؟

- كلا. إنها ملكي.

خرج «سكوت» من مخبئه وهو يدس المكعب في جيبه.

- إنها من العم «هاري».

- هل أعطاها لكِ العم «هاري» يا «إيما»؟

قال «سكوت» بسرعة:

- أعطاها لي من أجل «إيما».

ثم أردف ليدعم كذبته:

- الأحد الماضي.

- سوف تكسرينها، يا عزيزتي.

أحضرت «إيما» الدمية إلى والدتها.

- إنها منفصلة إلى أجزاء. انظري!

- حقًا؟ إنها... يا للقرف!

شهقت «جاين». ورفع «باراداين» رأسه بسرعة.

- ما الأمر؟

أرته الدمية بتردد، ثم دلفت إلى غرفة الطعام، وهي تحدجه بنظرة ذات مغزى. تبعها وأغلق الباب. وضعت «جاين» الدمية على المائدة النظيفة.

- هذا ليس لطيفًا، أليس كذلك يا «ديني»؟

- هممم.

لم تكن دمية مريحة الشكل من النظرة الأولى. قد يتوقع المرء وجود دمية تشريحية في مدرسة طبية، ولكن أن تكون دمية أطفال...

كانت الدمية مقسمة إلى أجزاء: جلد وعضلات وأعضاء، ورغم صغرها فإن «باراداين» رآها مثالية تمامًا. قال باهتمام:

- لست أدري. هذه الأشياء لا تحمل الدلالات ذاتها للأطفال...

- انظر إلى تلك الكبد. أهي الكبد؟

- بالتأكيد. لكنها تبدو غريبة.

- ماذا تقصد؟

- إنها ليست مثالية من الناحية التشريحية.

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جذب «بارادين» مقعدًا وأضاف:

- القناة الهضمية قصيرة جدًا، والأمعاء الغليظة غير موجودة. وكذلك الزائدة الدودية.

- أيجب على «إيما» أن تمتلك شيئًا كهذا؟

أجاب «بارادين»:

- لا أرى أي مانع. من أين حصل «هاري» عليها بحق السماء؟ لا، لا أرى ضررًا فيها. إن الكبار ينزعجون عند رؤية الأحشاء، على النقيض من الأطفال، الذين يظنون أن الداخل مصمت مثل البطاطس. هذه الدمية قد تُزوّد «إيما» بمعرفة عملية سليمة عن وظائف الجسم.

- ولكن ما هذه الأشياء؟ أهي أعصاب؟

- كلا، هذه هي الأعصاب. الشرايين هنا والأوردة هنا. شريان أورطي غريب...

علت وجهه أمارات الحيرة مردفًا:

- هذا... ماذا تعني كلمة «شبكة» باللغة اللاتينية؟ «ريتا»؟ «راتا»؟

قالت «جاين» في اقتراح عشوائي:

- «رالز»(6)؟

قال «بارادين» بحسم:

- لا، هذا شكل من أشكال التنفس. لا أستطيع فهم ماهية تلك الشبكة المضيئة من الأشياء. إنها منتشرة في الجسم بأكمله كالأعصاب.

- دماء؟

- كلا، إنها لا تمتلك طبيعة الدورة الدموية، كما أنها ليست عصبية، عجبًا! يبدو أنها متصلة بالرئتين.

انهمكا في محاولة فهم الدمية الغريبة. كانت مصنوعة بتفاصيل دقيقة مدهشة، وهذا في حد ذاته أمر غريب، بالنظر إلى اختلافها الفسيولوجي عن المعتاد.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

قال «باراداين»:

- مهلًا، سأحضر كتاب «جولد».

وراح يقارن الدمية بالرسوم التشريحية. لكن ذلك لم يزده إلا حيرة.

ولكنها كانت أكثر متعة من لعبة تركيب الصور.

في تلك الأثناء، كانت «إيما» تمرر الخرز هنا وهناك في المعداد في الغرفة المجاورة. لم تعُد الحركات غريبة الآن. حتى عندما اختفى الخرز. كادت تتابع ذلك الاتجاه الجديد، أوشكت أن تفعل...

أما «سكوت» فأخذ يحدق في المكعب البلوري لاهثًا، ويوجه عقله، برغم عدة بدايات خطأ، لبناء هيكل أكثر تعقيدًا من ذلك الذي دمرته النيران. هو أيضًا كان يتعلم، ويُكيف ويُهيئ...

***

كان الخطأ الذي وقع فيه «باراداين»، من منظور بشري بحت: هو عدم تخلُّصه من تلك الألعاب على الفور. لم يدرك خطورتها، وحين فعل، كانت الظروف قد شهدت تقدمًا ملحوظًا. ظل العم «هاري» خارج المدينة، لذلك لم يستطع التحقق من الأمر. بالإضافة إلى ذلك، كانت امتحانات نصف العام الدراسي جارية، فكان «باراداين» يبذل جهدًا عقليًا شاقًا بالنهار، ويصيبه الإرهاق التام في الليل. وألفت بـ«جاين» وعكة صحية لأسبوع تقريبًا. ومن ثَم تمتع «سكوت» و«إيما» بمطلق الحرية للهو بالألعاب.

في مساء أحد الأيام سأل «سكوت» والده:

- ما معنى «وايب»، يا أبي؟

- أتقصد «وايف»(7)؟

أجاب بتردد:

- لا أعتقد ذلك. أليست «وايب» صحيحة؟

- «وايب» هي لفظة إسكتلندية لكلمة «ويب». أذلك هو المقصود؟

غمغم «سكوت»:

- لا أظن ذلك.

وابتعد متجهمًا وهو يعبث بالمعداد. لقد أتقن استخدامه الآن ببراعة. ولكنه حرص هو و«إيما» على اللهو بالألعاب سرًا، ليتجنبا - غريزيًا - تطفل الكبار. بلا ريب، التجارب الأكثر تعقيدًا لم تُجرَ قط على مرأى ومسمع من الكبار.

كان «سكوت» يتعلم بسرعة. ولم يغد ما يراه الآن في المكعب البلوري مرتبطًا بالمشكلات البسيطة الأصلية، بل مرتبطًا بأمور تقنية مدهشة. ولو أدرك «سكوت» أن تعليمه يُوجَّه ويُشرَف عليه، ولكن بطريقة آلية، لربما فقد الاهتمام. كما أن أبويه لم يردعاه.

المعداد، والمكعب، والدمية، وغيرها من الألعاب التي وجدها الأطفال في الصندوق...

لم يخمن «باراداين» ولا «جاين» مدى تأثير محتويات آلة الزمن على الطفلين. وما أدراهما؟ إن الأطفال يلجئون للتمثيل بتلقائية لحماية أنفسهم. إنهم لم يتكيفوا بعد مع متطلبات العالم الناضج، الذي يشوبه الغموض في نظرهم. كما أن حياتهم معقدة بسبب المتغيرات البشرية؛ فأحد ما يخبرهم أن بوسعهم اللعب في الوحل، شريطة عدم اقتلاع الزهور أو الأشجار الصغيرة في أثناء الحفر. وينهاهم آخر عن ذلك. إن الوصايا العشر ليست منحوتة على الحجر؛ فهي تختلف، والأطفال لا حول لهم ولا قوة، ومن ثم يعتمدون على مزاجية أولئك الذين ينجبونهم ويوفرون لهم الطعام والكساء ومن ثم يتحكمون بهم. إن الصغار لا يغضبون من السيطرة المغلفة بالمحبة، لأنها جزء أساسي من الطبيعة. لكنهم يتمتعون بكيان مستقل ويحافظون عليه بمقاومة سلبية وخفية.

تطرأ التغيرات على الطفل تحت أعين الكبار، كأنه ممثل على خشبة المسرح. فيسعى لإرضاء الآخرين وأيضًا لجذب الانتباه إليهم. ولا تقتصر تلك المحاولات على الصغار، بل يقوم بها الكبار كذلك. وإن كان بعضهم أكثر حرصًا في إخفائها عن الآخرين.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

من العسير الاعتراف بأن الأطفال يفتقرون للرقة. إنهم يختلفون عن الكبار بسبب أسلوب تفكيرهم المغاير. ورغم أنه في مقدورنا دحض حججهم بسهولة، فإن بوسعهم فعل المثل. ويمكن للأطفال تدمير حجج الكبار بلا رحمة؛ إنهم بارعون في تدمير المعتقدات.

مثلًا: التأنق الشديد، والمجاملات المفرطة في العلاقات الاجتماعية، وبائعو الهوى...

تُعلق الأرملة الثرية والشابة الشقراء: «يا للباقة! يا للكياسة الجمة!».

ويُلقي الرجال بتعليقات أقل لطفًا. ولكن الطفل يمضي إلى كُنه الحقيقة: «أنت سخيف!».

كيف يمكن لإنسان غير ناضج أن يفهم النظام المعقد الذي يحكم العلاقات الاجتماعية؟ لا يستطيع. إن الطفل يعدُّ اللباقة الطبيعية المفرطة سخيفة ومتصنعة وزائفة. إنه حيوان صغير أناني، ليس بوسعه تصور نفسه مكان الآخرين، ناهيك بشخص بالغ. إنه وحدة طبيعية مستقلة وشبه مكتملة، يلبي الآخرون رغباته، وما أشبهه بالكائن أحادي الخلية الذي يسبح في تيار الدم، ويُحمَل إليه الغذاء، ويُتخلَّص من فضلاته.

إن الطفل، من الناحية المنطقية، كامل بصورة مروعة. وقد يكون الرضيع أكثر كمالًا، لولا أن الكبار يرونه غريبًا، فلا تنطبق عليه إلا معايير سطحية للمقارنة. وعمليات التفكير عند الرضع مستحيلة التصور. ولكنهم يفكرون، حتى قبل الولادة. إنهم يتحركون وينامون في الرحم، ليس بالغريزة كليًا. إننا نستغرب فكرة أن جنينًا شبه حي قد يفكر، فتنتابنا الدهشة والصدمة حد الضحك، ونشعر بالنفور. إننا نرى غرابة في الشيء غير البشري.

ولكن الرضيع ليس إنسانًا. والجنين أقل إنسانية بكثير.

ولعل هذا هو السبب في أن «إيما» تعلمت من الألعاب أسرع مما فعل «سكوت». ومع ذلك كان بوسعه التعبير عن أفكاره؛ على عكس «إيما»، التي اتخذت أفكارها شكل شذور مبهمة. على سبيل المثال: موضوع الشخبطة...

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أعطِ طفلًا قلمًا رصاصيًا وورقة، وسيرسم شيئًا يحمل دلالة تختلف عن دلالات الكبار. وربما يرسم سيارة إطفاء، لكن الكبار لن يرونها كذلك. بل قد تكون تلك الشخبطة السخيفة ثلاثية الأبعاد. والأطفال يفكرون بشكل مختلف ويرون الأمور بصورة مغايرة.

جالت تلك الأفكار في رأس «بارادايْن»، وهو يطالع الصحيفة في مساء أحد الأيام، ويراقب تواصل الطفلين. كان «سكوت» يطرح بعض الأسئلة على أخته. وأحيانًا يفعل ذلك باللغة الإنجليزية. وفي كثير من الأحيان يستخدم لغة الإشارة وكلامًا غير مفهوم. وحاولت «إيما» الإجابة عن أسئلته، لكنها وجدت صعوبة كبيرة.

أخيرًا، جلب «سكوت» قلمًا وورقة. وراق ذلك لـ«إيما». وبمرح، شرعت بمشقة تكتب رسالة. تناول «سكوت» الورقة وفحصها، ثم قال عابسًا:

- هذا ليس صحيحًا يا «إيما».

أومأت «إيما» بحماس. وأمسكت القلم مجددًا وخطت مزيدًا من الشخبطة. علت الحيرة وجه «سكوت» لبعض الوقت، ثم ابتسم بتردد ونهض. وغاب في الرواق. واستأنفت «إيما» لعبها بالمعداد.

قام «بارادايْن» ونظر إلى الورقة، وقد خطرت له فكرة مجنونة: أن «إيما» قد أتقنت فجأة الكتابة. لكنها لم تكن كذلك. كانت الورقة ممتلئة بشخبطة فارغة، من النوع المألوف للآباء. زم «بارادايْن» شفتيه. قد يكون رسمًا للتناقضات الذهنية لصرصور مصاب بالهوس الاكتئابي، وربما لا. لكنه بالتأكيد يحمل معنى لـ«إيما». وربما كان يمثل دمية السيد «دب».

عاد «سكوت» والسرور يرتسم على وجهه. والتقت عيناه بعينَي «إيما» وأومأ.

فانتاب «بارادايْن» الفضول.

- أسرار؟

- كلا. طلبت «إيما» مني أن أفعل شيئًا لها.

قال «بارادايْن»:

- حسنًا.

وتذكر حالات الأطفال الذين كانوا يغمغمون بلغات غير معروفة وأثاروا ذهول علماء اللغة. واعتزم الاحتفاظ بالورقة حين ينتهي الطفلان من استخدامها. وفي اليوم التالي، أراها لأستاذ في الجامعة يُدعى «إلكينز»، كان ضليعًا في العديد من اللغات غير المعروفة، والذي ابتسم لتجربة «إيما» الأدبية.

- إليك ترجمة مجانية، يا «دينيس»: «لا أعرف معنى هذه الشخبطة، ولكنني أغيظ بها أبي كثيرًا»!

قهقه الرجلان وانصرفا إلى العمل. ولن يتذكر «باراداين» تلك الواقعة، إلا بعد لقائه بـ«هولواي»، بعد بضعة أشهر، وخلال تلك الفترة ستتطور الحالة بشكل أكبر نحو ذروتها.

***

لما أبدى «باراداين» و«جاين» اهتمامًا كبيرًا بالألعاب، فإن الطفلين اعتزما إخفاءها واللعب بها سرًا. ولم يفعلا ذلك علنًا، ولكن بحذر غير ملحوظ. ولكن ساورت «جاين» بعض المخاوف. فتحدثت إلى «بارادين» عن ذلك الأمر في مساء أحد الأيام.

- بخصوص تلك الدُمية التي أعطاها «هاري» لـ«إيما».

- ما خطبها؟

- كنت في وسط المدينة اليوم وحاولت معرفة من أين جاءت. لم أتوصل لشيء.

- ربما اشتراها «هاري» من نيويورك.

لم تقتنع «جاين».

- سألتهم عن الأشياء الأخرى أيضًا. أروني المخزون، أنت تعرف أن «جونسون» متجر كبير. ولكنني لم أجد شيئًا يشبه المعداد الذي تلعب به «إيما».

- هممم.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

لم يبدُ على «باراداين» الاهتمام. كانا قد حصلا على تذكرتين لحضور فيلم في تلك الليلة، وكان الوقت متأخرًا. لذلك تجاهلا الموضوع حينها.

بيد أن الموضوع عاود الظهور لاحقًا، عندما اتصل أحد الجيران بـ«جاين».

- هذا ليس من طباع «سكوتي»، يا «ديني». لقد أخبرتني زوجة السيد «بيرنز» أنه أثار هلع ابنها «فرانسيس».

- «فرانسيس»؟ ذلك الطفل المتنمر البدين، مثل والده. لقد كسرت أنف «بيرنز» ذات مرة، عندما كنا ندرس في الجامعة.

قالت «جاين» وهي تخلط الكوكتيل:

- كف عن التفاخر وأصغِ. لقد أظهر «سكوت» شيئًا لـ«فرانسيس» أرعبه. أليس من الأفضل أن تقوم...

- أعتقد ذلك.

أنصت «باراداين». وأنبأته الأصوات في الغرفة المجاورة بمكان ابنه.

- «سكوتي»!

ظهر «سكوتي» مبتسمًا وقال:

- طاخ! لقد قتلتهم جميعًا. قراصنة الفضاء. هل تحتاج إليّ يا أبي؟

- نعم، إذا كنت لا تمانع في إرجاء دفن جثث قراصنة الفضاء لبضع دقائق. ماذا فعلت لـ«فرانسيس بيرنز»؟

قال «سكوت» وعيناه الزرقاوان تلمعان ببراءة:

- ماذا؟

- حاول مجددًا. أنت بالتأكيد تتذكر.

- أوه، ذلك الأمر. لم أفعل لا شيء.

بشرود صححت «جاين» عبارته:

- تقصد لم أفعل شيئًا.

- لم أفعل شيئًا. صدقًا. إنما تركته ينظر في جهاز التلفزيون الخاص بي، وتملّكه الرعب.

- جهاز تلفزيون؟

أخرج «سكوت» المكعب البلوري.

- إنه ليس جهاز تلفزيون حقيقي. انظر!

فحص «باراداين» الجهاز، واندهش من خواصه المكبرة. غير أنه لم يرَ فيه إلا متاهة من التصميمات الملونة لا معنى لها.

- العم «هاري»...

مد «بارادين» يده نحو الهاتف. وازدرد «سكوت» لعابه.

- هل عاد العم «هاري» إلى المدينة؟

- نعم.

- حسنًا، سأذهب لأستحم.

اتجه «سكوت» نحو الباب. وتلاقت أعين «جاين» و«باراداين»، الذي أومأ بنظرة خاصة.

لقد عاد «هاري» إلى المنزل، ولكنه نفى صلته بالألعاب الغريبة. وبعبوس، طلب «باراداين» من «سكوت» إحضار جميع الألعاب من غرفته. وفي النهاية، رصوها على الطاولة: المكعب، والمعداد، والدمية، والقبعة على شكل خوذة، وعدة أجهزة أخرى غامضة. خضع «سكوت» للاستجواب. وكذب بجرأة لبعض الوقت، لكنه انهار أخيرًا وأخذ يبكي ويشهق مُدليًا باعترافه.

قال «بارادين» بلهجة آمرة:

- أحضِر الصندوق الذي جاءت فيه هذه الأشياء. ثم اذهب للنوم.

- هل ستعاقبني يا أبي؟

- نعم، بسبب تغيبك وكذبك. إنك تعرف القواعد. أنت ممنوع من الذهاب للسينما واحتساء المشروبات الغازية لمدة أسبوعين.

ازدرد «سكوت» لعابه وقال:

- هل ستحتفظ بأشيائي؟

- لا أعرف بعد.

- حسنًا، تصبح على خير يا أبي. تصبحين على خير يا أمي.

بعدما صعد الصبي إلى الطابق العلوي، جلب «باراداين» مقعدًا وتفحص الصندوق بعناية. وأخذ يتحسس بتمعن الأجهزة الملتحمة به. وراقبته «جاين».

- ما الخطب يا «ديني»؟

- لست أدري. من يترك صندوق ألعاب عند النُّهير؟

- ربما سقط من إحدى السيارات.

- ليس في ذلك المكان. الطريق لا يلتقي بالنُّهير شمال جسر السكة الحديدية. إنها أرض فارغة ولا شيء آخر.

أشعل سيجارة واستطرد:

- هل تريدين مشروبًا يا عزيزتي؟

- سأحضره.

مضت «جاين» وعيناها تفيضان بالقلق. جلبت كأسًا لـ«بارادين» ووقفت خلفه، وأناملها تعابث شعره.

- أهناك مشكلة؟

- بالطبع لا. ولكن من أين جاءت هذه الألعاب؟

- لم يعرف متجر «جونسون»، رغم أنهم يجلبون بضائعهم من نيويورك.

قال «بارادين» معترفًا:

- لقد كنت أتحقق من الأمر أيضًا. تلك الدمية...

أردف وهو يلمسها:

- تثير قلقي بعض الشيء. ربما تكون مُصفّمة حسب الطلب، ولكن ليتني أعرف مَن صنعها.

- ربما عالِم نفسي؟ ألا يجرون اختبارات للناس مستخدمين أشياء كذلك المعداد؟

فرقع «باراداين» أصابعه وقال:

- صحيح! وبالمناسبة! هناك رجل يُدعى «هولواي» سيلقي محاضرة في الجامعة الأسبوع المقبل، متخصص في «علم نفس الأطفال». إنه شخصية بارزة، ويتمتع بسمعة طيبة. قد يعرف شيئًا عن ذلك.

- «هولواي»؟ لا أعرف...

- «ريكس هولواي». إنه... هممم! إنه يعيش قريبًا من هنا. هل تعتقدين أنه له يد في صنع هذه الأشياء؟

كانت «جاين» تفحص المعداد. ثم تراجعت للوراء وقالت بتجهم:

- إذا كان كذلك، فأنا لا أحبه. ولكن حاوِل أن تكتشف الأمر، يا «ديني».

أومأ «باراداين» قائلًا:

- سأفعل.

جرع شرابه في عبوس. وانتابه قلق غامض. لكن الخوف لم يستحوذ عليه بعد.

***

كان «ريكس هولواي» رجلًا بدينًا وأنيقًا، برأس أصلع ونظارات سميكة، يتدلى من فوقها حاجبان كثان سوداوان كيرقتين كثيفتي الشعر. وبعد أسبوع دعاه «باراداين» إلى المنزل لتناول العشاء في إحدى الأمسيات. ورغم أن «هولواي» تظاهر بعدم مراقبة الطفلين، فإنه لم يُفوّت شيئًا مما فعلاه أو قالاه. كما لم تغِب عن عينيه الرماديتين، الثاقبتين واللامعتين، أي شاردة أو واردة.

أذهلته الألعاب. وفي غرفة المعيشة، تجمع الثلاثة حول الطاولة التي رُصّت عليها الألعاب. وفحصها «هولواي» بدقة بينما كان يستمع إلى الوالدين. وأخيرًا، قطع صمته قائلًا:

- أنا سعيد لقدومي الليلة. ولكن ليس تمامًا. هذا أمر في غاية الإزعاج.

قال «باراداين» بدهشة:

- ماذا؟

وبانت على وجه «جاين» أمارات الحيرة. ولم تهدئ من روعهما كلمات «هولواي» التالية.

- ما نحن بصدده هو الجنون.

ابتسم للصدمة المرتسمة على وجهيهما.

- جميع الأطفال مجانين في نظر الكبار. هل قرأتم رواية «هيوز»(8): «الرياح العاتية في جامايكا»؟

- إنها معي.

التقط «بارادين» كتيبًا من الرف. وتناوله «هولواي» وأخذ يقلب الصفحات حتى وجد بغيته. ثم قرأ بصوت عالٍ:

- *«إن الأطفال - بلا ريب - ليسوا بشرًا، بل حيوانات، ويمتلكون ثقافة قديمة ومعقدة للغاية، تشبه ثقافة القطط والأسماك وحتى الثعابين؛ إنهم ينتمون للنوع نفسه، ولكنهم أكثر تعقيدًا وحيوية، لأن الأطفال هم، في النهاية، أحد أنواع الفقاريات الدنيا الأكثر تطورًا. باختصار، العمليات العقلية للأطفال يتعذر فهمها باستخدام المعايير الخاصة بالعمليات العقلية للكبار».*

حاولت «جاين» الحفاظ على هدوئها، لكنها لم تستطع.

- أتقصد أن «إيما»...

سألها «هولواي»:

- هل بوسعك التفكير مثل ابنتك؟ استمعا لهذه العبارة: «يتعذر على البالغين التفكير مثل الأطفال مثلما يتعذر عليهم التفكير مثل النحل».

حضّر «باراداين» المشروبات. وقال من فوق كتفه:

- أنت تُنظّر كثيرًا، أليس كذلك؟ أفهم أنك تُلمّح إلى أن الأطفال يمتلكون ثقافة خاصة، بل مستوًى عاليًا من الذكاء.

- ليس بالضرورة. كما ترى لا يوجد معيار. جُل ما أقول هو إن الأطفال يفكرون بأساليب مختلفة عنّا، ليست بالضرورة أفضل، لأن ذلك يعتمد على القيم النسبية. ولكن بطريقة مختلفة متعلقة بتوسيع...

أخذ يبحث مقطبًا عن الكلمات المناسبة.

قال «بارادين» بفظاظة وانزعاج بسبب تفكيره في «إيما»:

- «المخيلة». الأطفال لا يمتلكون حواس مختلفة عن حواسنا.

تساءل «هولواي»:

- من قال ذلك؟ إنهم يستخدمون عقولهم بطريقة مختلفة، هذا كل شيء. ولكنه يكفي تمامًا!

قالت «جاين» ببطء:

- إنني أحاول استيعاب ما تقول. وكل ما بوسعي التفكير فيه هو خلاطي الكهربائي؛ يمكنه خفق العجينة السائلة وهرس البطاطس، ويمكنه أيضًا عصر البرتقال.

- شيء من هذا القبيل. إن الدماغ مادة غروية؛ آلة في غاية التعقيد. ونجهل الكثير عن إمكانياته. بل إننا لا نعرف مدى استيعابه. ولكن من المعروف أن العقل يُكيّف ويُهيّأ مع نمو الكائن البشري. فيستوعب بعض النظريات المعروفة، وتعتمد كل أفكاره اللاحقة على الأنماط المُسلّم بها. انظرا إلى هذا.

لمس «هولواي» المعداد مُردفًا:

- هل جربتماه؟

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أجاب «بارادايـن»:

- قليلًا.

- ولكن ليس كثيرًا، أليس كذلك؟

- بلى...

- لِم لا؟

قال «بارادايـن» بتذمر:

- إنه عديم الجدوى. حتى الألغاز تحتاج إلى بعض المنطق. ولكن تلك الزوايا المجنونة...

قال «هولواي»:

- لقد شكَّل عقلك وفقًا لنظرية «إقليدس». لذا فإن هذا الشيء يثير ضجرنا ويبدو بلا جدوى. ولكن الطفل لا يعرف شيئًا عن نظرية «إقليدس». ولن يضيره أن هناك نوعًا غير منطقي ومختلفًا عن هندستنا. إنه يؤمن بما يراه.

تساءل «بارادايـن»:

- أتحاول إخباري أن لهذا الجهاز *بُعدًا رابعًا*؟

أجاب «هولواي» نافيًا:

- ليس بصورة بصرية، على أي حال. كل ما أقوله هو إن عقولنا، المقيدة بالنظريات الهندسية المعروفة، لا ترى فيه سوى تشابك غير منطقي من الأسلاك. ولكن الطفل، خصوصًا الرضيع، قد يرى المزيد. ليس من الوهلة الأولى. بل سيكون لغزًا، بالطبع. لكن الطفل لن يتقيد بالأفكار المسبقة المتعددة.

قاطعت «جاين» كلامه:

- تصلب شرايين التفكير.

لم يبدُ على «بارادايـن» الاقتناع.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

- إذن، يمكن للرضيع أن يحسب بشكل أفضل من «أينشتاين»؟ لا، لا أعني ذلك. إنني أفهم مقصدك بوضوح إلى حد ما. لكن...

- حسنًا، دعونا نفترض أن هناك نوعين من الهندسة. نوعنا، وهو «الهندسة الإقليدية»، ونوعًا آخر مجهولًا سنسميه «إكس». الهندسة «إكس» ليس لها علاقة بالهندسة الإقليدية، بل تستند إلى نظريات مختلفة. ربما لا يساوي حاصل جمع اثنين واثنين فيها أربعة؛ بل قد يساوي رقمًا آخر، بل قد لا يساويان شيئًا. وعقل الطفل لم يُشكَّل بعد، باستثناء بعض العوامل محل الشك والمتعلقة بالبيئة والجينات الوراثية. اجعل الطفل يبدأ بتعلم الهندسة الإقليدية...

قالت «جاين»:

- طفل مسكين.

رمقها «هولواي» بنظرة خاطفة.

- مبادئ الهندسة الإقليدية. مكعبات الحروف. الرياضيات، الهندسة، الجبر، يأتون في وقت لاحق. إننا معتادو ذلك التدرج. من ناحية أخرى، لنجعل الطفل يبدأ بالمبادئ الأساسية للمنطق «إكس».

- مكعبات؟ أي نوع؟

نظر «هولواي» إلى المعداد وقال:

- لن تحمل معنًى كبيرًا لنا، لأننا ترعرعنا على النظريات المألوفة.

صب «باراداين» جرعة قوية من الويسكي.

- هذا أمر جد فظيع. إنك لست مقيدًا بالرياضيات.

- بالضبط! أنا لست مقيدًا على الإطلاق. وكيف عساي؟ أنا لست متكيفًا على المنطق «إكس».

قالت «جاين» وهي تتنفس الصعداء:

- هنا تكمن الإجابة. مَن هو؟ بالتأكيد ثمة شخص بوسعه صُنع هذه الألعاب باعتقادك.

أومأ «هولواي»، وطرف بعينيه من وراء العدسات السميكة، وقال:

- قد يكونون موجودين.

- أين؟

- ربما يفضلون إخفاء هويتهم.

- أشخاص خارقون؟

- ليتني أعرف. هل تفهمني يا «بارادين»، لدينا مشكلة في المعيار مجددًا. بموجب مقاييسنا، قد يكون هؤلاء الأشخاص مدهشين في بعض النواحي. وفي بعض الأمور قد يبدون أغبياء. إنه ليس فارقًا كميًا؛ بل نوعيًا. إنهم يفكرون بصورة مختلفة. وأنا واثق من أن بوسعنا الإتيان بأمور يعجزون عن القيام بها.

Telegram:@mbooks90

قالت «جاين»:

- ربما لا يرغبون في ذلك.

تحسس «بارادين» الجهاز الملتحم بالصندوق.

- وما رأيك بهذا؟ إنه يوحي...

- هدف، بالتأكيد.

- وسيلة نقل؟

- هذا أول ما طاف بذهني. وإذا كان الأمر كذلك، فربما جاء الصندوق من أي مكان.

تساءل «بارادين» ببطء:

- مكان تكون فيه الأشياء... مختلفة؟

- بالضبط. مختلفة مكانيًا أو حتى زمنيًا. لست أدري. أنا عالم نفسي. وللأسف، عقلي متكيف على النظريات التقليدية أيضًا.

قالت «جاين»:

- لا بد أنه مكان غريب. تخلص من هذه الألعاب يا «ديني».

- سأفعل.

أمسك «هولواي» المكعب البلوري وقال:

- هل استجوبت الأطفال كثيرًا؟

أجاب «باراداين»:

- نعم. أخبرني «سكوت» أن ثمة أشخاصًا في ذلك المكعب عندما نظر إليه للمرة الأولى. فسألته عما يوجد فيه الآن.

اتسعت عينا العالِم النفسي وسأله:

- بمَ أجاب؟

- قال إنهم يبنون مكانًا. وحين سألته مَن هم، عجز عن الشرح.

تمتم «هولواي»:

- أجل، لا أظن أن بوسعه الشرح. يجب أن يكون التعليم تدريجيًا. كم ظلت هذه الألعاب في أيدي الطفلين؟

- أظن ثلاثة أشهر تقريبًا.

- إنه وقت كافٍ. إن اللعبة المثالية - كما ترى - لا بد أن تكون تعليمية وميكانيكية. وتقوم بأشياء تثير اهتمام الطفل، ويجب أن تُعلّمه، ويُستحسن بشكل غير ملحوظ. مشكلات بسيطة في البداية، ثم...

أكملت «جاين» بوجه شاحب:

- المنطق «إكس».

أطلق «باراداين» شبة بخفوت وقال:

- «إيما» و«سكوت» طفلان طبيعيان تمامًا!

- هل تعرف كيف يعمل عقلاهما الآن؟

لم يلح «هولواي» في الأسئلة. تحسس الدمية مضيفًا:

- سيكون من المثير أن نعرف ظروف المكان الذي جاءت منه هذه الأشياء. ورغم ذلك لن تفيد الاستنتاجات كثيرًا. هناك العديد من العوامل المفقودة. من العسير علينا تصوُّر عالَم قائم على العامل «إكس»؛ بيئة معدلة لعقول تفكر بأنماط «إكس». قد تكون تلك الشبكة المضيئة داخل الدمية أي شيء. ربما توجد داخلنا، لكننا لم نكتشفها بعد. وعندما نجد الصيغة المناسبة(9)...

هز كتفيه واستطرد:

- ما رأيك بهذه؟

كانت كرة قرمزية، بقطر بوصتين، وتبرز من سطحها عقدة نافرة.

- ومَن يمكنه فهم طبيعتها؟

- «سكوت»؟ «إيما»؟

- لم أرَها إلا منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا. كانت «إيما» قد بدأت تلعب بها.

عض «باراداين» شفته السفلى وأكمل:

- بعد ذلك، لفتت نظر «سكوت».

- ماذا كانا يفعلان بالضبط؟

- يرفعانها أمامهما ويتحركان بها ذهابًا وإيابًا. من دون نمط محدد من الحركة.

قال «هولواي» مصححًا:

- تقصد من دون نمط «مألوف» لدينا. في البداية، لم يدركا هدف اللعبة. كان عليهما أن يتعلما حتى يفهماها.

قالت «جاين»:

- هذا أمر مرعب.

- إنهما لا يجدانه كذلك. ربما تكون «إيما» أسرع فهمًا للمنطق «إكس» من «سكوت»، لأن عقلها لم يتكيف بعد مع بيئتنا.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

علّق «باراداين»:

- لكنني أتذكر عدة أشياء فعلتها عندما كنت طفلًا، حتى وأنا رضيع.

- إلام ترمي؟

- هل كنت مجنونًا حينها؟

أجاب «هولواي» بسرعة:

- إن الأشياء التي لا تتذكرها هي معيار جنونك. إنما استخدم كلمة «جنون» لكونها رمزًا مناسبًا للاختلاف عن المعيار البشري المعروف؛ المعيار العقلاني المتعسف.

وضعت «جاين» كأسها وقالت:

- لقد ذكرت أن الاستنتاجات لا تجدي نفعًا، يا سيد «هولواي». ولكن يتراءى لي أنك تستخدمها بإفراط رغم ضآلة المعطيات. هذه الألعاب في النهاية...

- إنني عالِم نفسي، وتخصصي الأدق هو «علم نفس الأطفال». أنا لست شخصًا عاديًا. وبرأيي أن هذه الألعاب تحمل مغزًى كبيرًا، ولا سيما لأنها تبدو بلا معنى.

- ربما تكون مخطئًا.

- حسنًا، أتمنى ذلك. أود أن أفحص الطفلين.

نهضت «جاين» وقالت بذعر:

- كيف؟

بعدما شرح «هولواي»، أومأت، لكن ببعض التردد.

- حسنًا، لا بأس. ولكنهما ليسا فأرَي تجارب.

لوّح العالِم النفسي بيده المكتنزة في الهواء.

- أنا لست «فرانكنشتاين»، يا عزيزتي! إن الفرد هو العامل الأساسي بطبيعة الحال، لأنني أعمل مع العقول. وإذا كان هناك خلل في الطفلين، سأرغب في

علاجهما.

أطفأ «باراداين» سيجارته، وراقب الدخان الأزرق يتصاعد ببطء في مسار لولبي متذبذبًا في تيار واهن.

- هل بوسعك تقديم تشخيص؟

- سأحاول. قصارى القول إنه إذا تحولت العقول غير الناضجة إلى المسار «إكس»، فمن الضروري إعادة تحويل مسارها. ولا أعني أنه أفضل تصرُّف، ولكنه كذلك وفق معاييرنا. في النهاية، سيضطر الطفلان للتعايش مع عالمنا هذا.

- أجل. أجل. لا أصدق أن ثمة مشكلة كبيرة بهما. إنهما يبدوان طفلين عاديين جدًا.

- ربما ظاهريًا. ما من دافع يجعلهما يتصرفان بشكل غير طبيعي، أليس كذلك؟ وكيف تعرف إن كانا يفكران بطريقة مختلفة؟

قال «باراداين»:

- سأستدعيهما الآن.

- ليكن الأمر بصورة غير رسمية. لا أريد أن يأخذا الحذر.

أومأت «جاين» نحو الألعاب. فقال «هولواي»:

- اتركا الأشياء هنا.

بعد استدعاء «إيما» و«سكوت»، لم يطرح العالِم النفسي أسئلة مباشرة على الفور. بل نجح في جذب «سكوت» في المحادثة بشكل غير ملحوظ، مسقطًا كلمات كاشفة بين الحين والآخر، ليس بصورة واضحة مثل اختبار تداعي الكلمات، والذي يستلزم تعاوُن المفحوص.

حدث التطور الأكثر إثارة عندما أمسك «هولواي» المعداد وقال:

- هل بوسعك أن تريني كيف يعمل هذا؟

قال «سكوت» بتردد:

- أجل، يا سيدي. بهذا الشكل...

مرر إحدى الخرزات ببراعة خلال المتاهة، في مسار متشابك، وفعل ذلك بسرعة كبيرة بحيث لم يكن أحد متيقنًا من اختفائها في النهاية. قد يكون الأمر مجرد خدعة. ثم، مرة أخرى...

جرب «هولواي». وراقبه «سكوت» بسأم.

- هل هذا صحيح؟

- أجل. يجب أن تصل إلى هنا...

- هنا؟ لماذا؟

- حسنًا، تلك هي الطريقة الوحيدة كي ينجح الأمر.

لكن عقل «هولواي» كان متكيفًا على منطقنا المألوف. ولم يجد سببًا واضحًا لإمرار الخرزة من هذا السلك بالذات إلى الآخر. بدا أنه عامل عشوائي. كما لاحظ «هولواي» فجأة، أنه لم يكن المسار الذي اتخذته الخرزة سابقًا عندما حل «سكوت» اللغز، على حد علمه على الأقل.

- هل يمكنك أن تريني مجددًا؟

ففعل «سكوت»، ثم أراه مرتين أخريين، بناءً على طلبه. وأمعن «هولواي» النظر. أجل، هناك عامل عشوائي ومتغير. كان «سكوت» يحرك الخرزة في مسار مختلف في كل مرة.

لم يستطع الكبار التيقن من أمر اختفاء الخرزة. ولو توقعوا اختفاءها، لربما اختلفت ردود أفعالهم.

في النهاية، عجز «هولواي» عن حل اللغز. وحين ألقى تحية الوداع، لم يبدُ عليه الارتياح.

- هل يمكنني زيارتكم مرة أخرى؟

أجابت «جاين»:

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

- تعالَ متى شئت. هل ما زلت تفكر في...

أومأ «هولواي» بالإيجاب وقال:

- إن عقليهما لا يتفاعلان بشكل طبيعي. إنهما ليسا غبيين على الإطلاق، ولكن يراودني شعور غريب بأنهما توصلا إلى استنتاجات بطريقة لا نفهمها. كأنهما استخدما «الجبر» بينما استخدمنا نحن «الهندسة». الاستنتاجات واحدة، ولكن طريقة الوصول إليها مختلفة.

تساءل «باراداين» بغتة:

- ماذا عن الألعاب؟

- احتفظ بها بعيدًا عن متناولهما. وأود أن أستعيرها، إذا سمحت...

***

جافى النوم عينَي «باراداين» في تلك الليلة. وأخذ يفكر في المقارنة غير الموفقة التي عقدها «هولواي»، والتي قادته إلى نظريات مزعجة. والعامل «إكس». واستخدام الطفلين التفكير الجبري، بينما يستخدم الكبار التفكير الهندسي.

Telegram:@mbooks90

هذا منطقي، ولكن...

قد يُقدِّم الجبر إجابات لا نجدها في الهندسة، فثمة مصطلحات ورموز لا يمكن التعبير عنها هندسيًا. ماذا لو أن المنطق «إكس» يُظهِر استنتاجات لا يمكن لعقول الكبار تصورها؟

تمتم «باراداين»:

- اللعنة!

تحركت «جاين» بجواره.

- هل جافاك النوم أيضًا، يا عزيزي؟

- نعم.

نهض ومضى إلى الغرفة المجاورة. كانت «إيما» غافية بهدوء كالملاك، وذراعها

المكتنزة تلتف حول دمية السيد «دب». ومن الباب المفتوح، أبصر «بارادابن» رأس «سكوت» ثابتًا على الوسادة.

وقفت «جاين» بجانبه، وطوّقها بذراعه. همست:

- كيف لـ«هولواي» أن ينعت هذين المسكينين بالجنون؟! أعتقد أننا المجانين يا «دينيس».

- صحيح، إننا نتصرف بتوتر.

تحرك «سكوت» في نومه. ومن دون أن يستيقظ، نطق بسؤال واضح، رغم أنه لم يبدُ بلغة معروفة، وأطلقت «إيما» صيحة صغيرة حادة.

لم تستيقظ. وظل الطفلان بلا حراك!

لكن تراءى لـ«بارادابن» أن «سكوت» قد طرح على «إيما» سؤالًا، وأجابته!

تقلصت أحشاؤه للفكرة.

هل تغيّر عقلاهما بحيث صار نومهما مختلفًا أيضًا؟

نفض عن ذهنه تلك الأفكار.

- ستصابين بالبرد. هيا لنغدُ إلى الفراش. هل ترغبين في مشروب؟

أجابت «جاين» وعيناها لا تفارقان «إيما»:

- أعتقد ذلك.

مدت يدها بعفوية نحو الطفلة ثم تراجعت.

- لنغادر وإلا سنوقظهما.

احتسيا قليلًا من «البراندي»، ولكنهما لم يتبادلا كلمة واحدة. لاحقًا، بكت «جاين» في نومها.

***

لم يكن «سكوت» مستيقظًا، لكن عقله كان يعمل بتأنٍّ ودقة. بهذا الشكل...

سينتزعون منا الألعاب. قد يكون الرجل البدين ليستافا خطيرًا. ولكن اتجاه جوريك لن يظهر... إيفينكروس دون لا يمتلكهم. إنتراندیکشن... مشرق ولامع. «إيما». إنها أكثر جوبرانيك عاليًا الآن من... ما زلت لا أعرف كيف... زافارار ليكسري ديستـ...

يمكن فهم بعض أفكار «سكوت». ولكن «إيما» تكيفت بسرعة أكبر على التفكير وفقًا للمنطق «إكس».

كانت تفكر أيضًا.

ليس كطفل أو إنسان بالغ. بل إن تفكيرها لم يغد مثل البشر. ربما يكون أقرب لإنسان مختلف تمامًا عن جنس «الهومو».

كان «سكوت» يواجه صعوبة أحيانًا في فهم أفكارها.

ربما كانت الحياة ستعود إلى مجراها الطبيعي، لولا وجود «هولواي». لم تغد الألعاب رسائل تذكير فعّالة. لا تزال «إيما» تلهو بالدمى وتكديس الرمال، بسعادة مفهومة. أما «سكوت» فقنع بكرة البيسبول ولعبته الكيميائية. كانا يفعلان ما يفعله غيرهما من الأطفال، ولم يُظهرا سوى لمحات خاطفة من الاختلال.

ولكن «هولواي» كان يثير القلق والمخاوف؛ انخرط في اختبار الألعاب، وكان يحصل على نتائج سخيفة بعض الشيء. وغرق في رسم المخططات والأشكال، وراسل علماء الرياضيات والمهندسين وعلماء النفس، وجُن عقله لإيجاد ترابط أو منطق في الأجهزة. وظل الصندوق لغزًا عصيًا، بآلاته الغامضة. لقد حوّل الانصهار الكثير من المواد إلى شوائب معدنية. أما الألعاب...

عرقل العنصر العشوائي عملية الفحص، ولو أن «هولواي» كان مقتنعًا بأنه ليس عشوائيًا، وأنه لا توجد عوامل كافية معروفة. مثلًا، لم يتمكن البالغون من حل لغز المعداد. كما أحجم «هولواي» عن السماح لأي طفل باللهو بهذا الشيء.

كان المكعب البلوري غامضًا بالقدر نفسه. وأظهر نمطًا غريبًا من الألوان، والتي تتحرك أحيانًا؛ كان يشبه المشكال(10). ولكن تغيير التوازن والجاذبية لم يؤثرا عليه. إن العنصر العشوائي يظهر مجددًا، أو بالأحرى: العنصر المجهول؛ «النمط

إكس».

في نهاية المطاف، قنع «بارادابن» و«جاين» بأن الطفلين قد شُفيا من شذوذ عقليهما، بعد إزالة المسبب. كما أن بعض سلوكيات «إيما» و«سكوت» سكّنت مخاوفهما، لقد استمتع الطفلان بالسباحة والمشي لمسافات طويلة ومشاهدة الأفلام، واللهو بالألعاب المعروفة آنذاك. صحيح أنهما فشلا في التعامل مع بعض الأجهزة الميكانيكية المعقدة التي تتطلب بعض الحسابات؛ مثل كرة الأحجية ثلاثية الأبعاد التي اشتراها «بارادابن». ولكنه وجد صعوبة في حلها أيضًا.

بين الفينة والأخرى كانت تقع بعض الهفوات. في ظهيرة يوم السبت كان «سكوت» يتنزه مع والده، ثم توقفا على قمة أحد التلال، الذي يمتد تحته وادٍ رائع.

علّق «بارادابن»:

- منظر ساحر، أليس كذلك؟

ألقى «سكوت» نظرة متفحصة على المشهد برزانة وأجاب:

- كل شيء خطأ.

- ماذا؟

- لست أدري.

- ما الخطأ بشأنه؟

- يا إلهي...

ثم غرق في صمت محير، مضيفًا:

- لا أعرف.

***

لم يدُم افتقاد الطفلين إلى ألعابهما إلا لمدة قصيرة. تأقلمت «إيما» أولًا، لكن «سكوت» كان لا يزال مكتئبًا. واعتاد إجراء محادثات غير مفهومة مع أخته، ودراسة الشخيطة الفارغة التي تخطها على الأوراق التي يجلبها لها. وكأنما كان

يستشيرها في مشكلات عويصة تفوق قدراته.

وإذا كانت «إيما» تفهم أكثر من «سكوت»، فإنه كان يمتلك ذكاء حقيقيًا أعلى منها، وكذلك مهارة التحكم في الأشياء. بنى جهازًا باستخدام لعبة «ميكانو»، لكنه لم يكن راضيًا عنه. أما «باراداين» فغمره الارتياح عند النظر إليه؛ كان يبدو كتلك الأشياء التي يصنعها صبي عادي، وإن كان أشبه بسفينة تكعيبية.

كان شكلًا عاديًا للغاية فلم يزق لـ«سكوت». وطفق يطرح على «إيما» المزيد من الأسئلة سرًا. فكانت تفكر لبرهة ثم تخط المزيد من الشخبطة بالقلم الرصاص الذي تمسكه بصعوبة.

***

في صباح أحد الأيام سألت «جاين» أخاها:

- هل بوسعك قراءة تلك الأشياء؟

- لا أقرؤها بالضبط. يمكنني فهم ما تعنيه أحيانًا.

- أهي كتابة؟

- كـ... كلا، إنها لا تعني ما تبدو عليه.

قال «باراداين» مقترحًا وهو يحتسي قهوته:

- رموز.

حدجته «جاين» بعينين متسعتين:

- «ديني»...

غمز وهز رأسه.

لاحقًا، عندما كانا بمفرديهما، قال:

- لا تدعي كلام «هولواي» يزعجك. لست أقصد أن الطفلين يتواصلان بلغة مجهولة. إذا رسمت «إيما» شخبطة وقالت إنها «زهرة»، فهذه قاعدة اعتباطية وسيتذكرها «سكوت» في المرة المقبلة عندما ترسم الشخبطة ذاتها. هل فهمت؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت «جاين» بتردد:

- نعم. هل لاحظت أن «سكوت» يقرأ كثيرًا مؤخرًا؟

- أجل. لكنها كتب عادية، لا «كانط» أو «سبينوزا».

- إنه يتصفح فحسب.

- حسنًا، كنت أفعل ذلك في مثل سنه.

ثم انطلق لدروسه الصباحية. وتناول الغداء مع «هولواي»، وهو أمر صار عادة يومية، وتحدَّث عن محاولات «إيما» الأدبية.

- هل كنت محقًّا بشأن الرموز، يا «ريكس»؟

أومأ العالم النفسي بالإيجاب.

- محق تمامًا. لغتنا ليست إلا رموزًا اعتباطية الآن. على الأقل في تطبيقها. انظر.

ثم شرع يرسم على منديله شكلًا بيضاويًا ضيقًا للغاية. وأردف:

- ما هذا؟

- أتقصد ماذا يمثل؟

- نعم. بِمَ يوحي لك؟ ما الشيء الذي يمثله هذا الشكل المرتجل؟

أجاب «باراداين»:

- عدة أشياء: حافة كأس، بيضة مقلية، رغيف خبز فرنسي، سيجار.

أضاف «هولواي» مثلثًا صغيرًا إلى أحد طرفَي الشكل البيضاوي. ثم نظر إلى «باراداين» الذي قال على الفور:

- سمكة.

- رمزنا المألوف للسمكة. بوسعنا تعرُّفها حتى من دون زعانف أو عيون أو فم، لأننا ألفنا تعرُّف هذا الشكل من صورتنا الذهنية للسمكة. مبدأ «ريبوس»(11). إن الرمز يحفل بمعانٍ أكثر مما نراه فعليًا على الورقة. ماذا يجول بذهنك حين تنظر

إلى هذا الرسم؟

- حسنًا، سمكة.

- وماذا أيضًا؟ ما الأشياء الأخرى التي تخطر ببالك عند رؤيته؟

أجاب «باراداين» ببطء، وهو ينظر إلى الفراغ:

- حراشف. ماء. رغوة. عين سمكة. الزعانف. الألوان.

- إذن، يحمل الرمز معاني أكثر بكثير من الفكرة المجردة للسمكة. ولاحظ أن الدلالات المرتبطة به تخص الاسم، وليس الفعل. من الصعب التعبير عن الأفعال بالرموز. على أي حال، اعكس العملية. لنفترض أنك تريد صياغة رمز لاسم ملموس، مثلًا: طائر. ارسمه.

رسم «باراداين» قوسين متصلين، انحناءاتهما للأسفل.

أومأ «هولواي» قائلًا:

- أقل قاسم مشترك. إننا نميل تلقائيًا إلى التبسيط. خصوصًا عندما يرى الطفل شيئًا للمرة الأولى ولا يمتلك معايير كثيرة للمقارنة. فيحاول تحديد الشيء الجديد باستخدام ما هو مألوف لديه. هل لاحظت كيف يرسم الطفل البحر؟

لم ينتظر الإجابة، بل تابع كلامه:

- سلسلة من النقاط المتعرجة. مثل الخط المتذبذب على جهاز قياس الزلازل. عندما رأيت المحيط لأول مرة، كنت في سن الثالثة تقريبًا. أتذكره بجلاء. بدا مائلًا؛ سهلًا مسطحًا، ينحرف بزاوية. وكانت الأمواج تشبه المثلثات المنتظمة، التي تتجه قممها للأعلى. بالطبع لا أراها بهذه الطريقة الآن، ولكنني حينها اضطررت للبحث عن معيار مألوف للمقارنة. وهذه هي الطريقة الوحيدة لتصوُّر شيء جديد تمامًا. والطفل العادي يحاول رسم هذه المثلثات المنتظمة، لكن تنسيقه ضعيف. فيحصل على نمط مثل ذلك الموجود في جهاز قياس الزلازل.

- ما مقصدك من كل ذلك؟

- حين يرى الطفل المحيط، يُبسطه، ويرسم نمطًا محددًا معينًا، يرمز للبحر في

نظره. قد تكون رسوم «إيما» رموزًا أيضًا. لا أعني أن العالم يبدو مختلفًا لها، أو ربما أكثر إشراقًا ووضوحًا وحيوية، أو أن عينيها تريان أشياء لا يراها البشر. بل أقصد أن عمليات تفكيرها أضحت مختلفة، وأنها تترجم ما تراه إلى رموز غير طبيعية.

- هل ما زلت تعتقد أن...

- نعم. لقد تكيف عقلها بشكل غير عادي. ربما تقسم ما تراه إلى أنماط بسيطة وواضحة، وتدرك أهمية تلك الأنماط التي نعجز عن فهمها. مثل المعداد. لقد رأت نمطًا فيه، رغم أنه كان عشوائيًا تمامًا لنا.

قرر «بارادايْن» بغتةً تقليل لقاءات الغداء مع «هولواي»؛ إنه رجل يثير المخاوف، وأصبحت نظرياته أكثر جموحًا مما سبق، كما أنه يستعين بأي شيء ليدعمها، سواء كان ذلك وثيق الصلة أم لا.

قال ساخرًا:

- هل تعني أن «إيما» تتواصل مع «سكوت» بلغة مجهولة؟

- بواسطة «رموز» لا تعرف كلمات لها. أنا متيقن من أن «سكوت» يفهم الكثير من تلك «الشخبطة». قد يمثل له مثلثًا متساوي الساقين أي عامل، رغم أنه قد يكون اسمًا ملموسًا. هل سيفهم إنسان لا يعرف شيئًا عن الجبر معنى «H_2O»؟ هل سيدرك أن الرمز يمكن أن يستحضر صورة للمحيط؟

لم يحر «بارادايْن» جوابًا. بل أشار إلى ملاحظة «سكوت» الغريبة بأن ثمة خطأ في المنظر الطبيعي الذي رأياه من التل. وبعد هنيهة، داخله الندم إذ شرع العالم النفسي يتحدث مجددًا.

- إن نمط أفكار «سكوت» يتطور بحيث لم يغد يتناسب مع عالمنا هذا. ربما يتوقع لا شعوريًا أن يرى العالم الذي جاءت منه تلك الألعاب.

كف «بارادايْن» عن الإصغاء، لقد طفح الكيل. إن طفليه يتعايشان بصورة جيدة، والعامل المزعج الوحيد كان «هولواي» نفسه. ومع ذلك، أبدى «سكوت» في تلك الليلة اهتمامًا بثعابين البحر، والذي سيفهم «بارادايْن» مغزاه فيما بعد.

لم يجد «بارادايْن» ضيرًا في اهتمام «سكوت» بالتاريخ الطبيعي، وأخذ يزوّده

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بمعلومات عن ثعابين البحر.

- ولكن أين تضع بيضها؟ وهل تفعل ذلك أصلًا، أم تنجب بطريقة أخرى؟

- ما زال الأمر لغزًا. إن مواقع تكاثرها غير معروفة. ربما بحر «سرقوسة» أو أعماق المحيط، حيث يساعد الضغط في دفع الصغار خارج أجسادها.

قال «سكوت» مستغرقًا في التفكير:

- أمر غريب!

- أسماك السلمون تفعل المثل تقريبًا. إنها تسبح عكس التيار للتكاثر.

شرع «باراداين» يتحدث بالتفصيل. واستولى الفضول على «سكوت».

- لكن هذا صحيح، يا أبي. إنها تُولد في النهر، ومن ثم تتعلم السباحة والغوص في البحر. ثم تعود لوضع البيض، أليس كذلك؟

- بلى.

قال «سكوت» مفكرًا:

- لكنها لا تعود. بل ترسل البيض...

قال «باراداين»:

- ستحتاج إلى واضع بيض طويل جدًا.

ثم أدلى ببعض التعليقات المناسبة حول «التكاثر بالبيض».

لم يبدُ على «سكوت» الاقتناع. وحاججه بأن الزهور تُرسل بذورها لمسافات طويلة.

- إنها لا ترشدها. ولا تجد الكثير منها تربة خصبة.

- لكن ليس للزهور أدمغة. لماذا يعيش الناس هنا يا أبي؟

- أتقصد «جليندل»؟

- كلا، أقصد *هنا*. هذا المكان بأكمله. أنا واثق من وجود *أماكن أخرى*.

- أتعني *الكواكب الأخرى*؟

تردد «سكوت» ثم قال:

- هذا جزء من المكان الأكبر فحسب. إنه يشبه النهر الذي تذهب إليه أسماك السلمون. لماذا لا يهبط الناس إلى المحيط عندما يكبرون؟

أدرك «بارادايز» أن «سكوت» يتحدث بشكل مجازي. وانتابته قشعريرة. «المحيط»؟!

***

إن صغار الأجناس ليست مُهيأة للعيش في العالَم المكتمل لآبائها. وبعد تطوُّرها بشكل كافٍ، تلج ذلك العالَم. وبعد ذلك تتكاثر. وتدفن البيوض المخصّبة في الرمال، عكس التيار، حيث تفقس فيما بعد.

وهي تتعلم، لأن الغريزة وحدها بطيئة للغاية. لا سيما في حالة جنس خاص، غير قادر على التكيف حتى مع هذا العالَم، عاجز عن الأكل أو الشرب أو البقاء على قيد الحياة، إلا إذا لبى شخص بحكمة تلك الاحتياجات.

ستنجو الصغار، بعد تغذيتها ورعايتها. وستكون هناك حاضنات وأشخاص مسخرون لخدمتهم. سينجون، ولكنهم لن يعرفوا كيفية السباحة مع التيار، إلى العالم الأوسع *للمحيط*، لذا لا بد من تعليمهم وتدريبهم وتهيئتهم بأساليب عديدة؛ من دون ألم، وبمهارة، وبشكل غير ملحوظ. والأطفال يحبون الألعاب التي تفعل أشياء، فما بالك إذا كانت تلك الألعاب تُعلِّمهم في الوقت نفسه...

***

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، جلس رجل إنجليزي على ضفة معشوشبة بالقرب من نُهَير. وبجواره استلقت فتاة صغيرة تحدق في السماء. كانت قد ألقت *لعبة غريبة تلهو بها*، وأخذت تدندن في خفوت *أغنية قصيرة*، أصغى إليها الرجل بلا اهتمام. ثم سألها أخيرًا:

- ما هذا يا عزيزتي؟

- مجرد شيء اختلقته، يا عمي «تشارلز».

أخرج دفتر الملاحظات وقال:

- غنها مرة أخرى.

أطاعت الفتاة.

- هل لها معنى؟

أومأت إيجابًا وقالت:

- نعم، مثل القصص التي أخبرك بها.

- إنها قصص رائعة يا عزيزتي.

- وسوف تضعها في كتاب يومًا ما؟

- نعم، ولكن يجب أن أجري فيها تغييرات كثيرة، وإلا فلن يفهمها مخلوق. ومع ذلك لا أظن أنني سأغير أغنيتك الصغيرة.

- إياك. إذا فعلت، لن تكون لها معنى.

قال بنبرة واعدة:

- لن أغير ذلك المقطع على أي حال. ماذا يعني بالضبط؟

قالت الفتاة بتردد:

- أظن أنه طريق الخروج. لست متأكدة بعد. لقد أخبرتني بذلك *ألعابي السحرية!*

- ليتني أعرف أي متجر في لندن يبيع تلك *الألعاب الرائعة!*

- اشترتها ماما من أجلي. لقد ماتت. وبابا لا يهتم.

كانت تكذب، لقد وجدت الألعاب في صندوق يومًا ما، بينما كانت تلهو عند نهر «التيمز». وكانت حقًا ألعابًا رائعة!

حسب العم «تشارلز»(12) أن الأغنية الصغيرة بلا معنى. (لم يكن عمها في الواقع، لكنه كان لطيفًا معها). غير أنها كانت تعني الكثير. إنها *الطريق*. في الوقت

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحالي، ستفعل ما تقوله الأغنية، وبعد ذلك...

لكنها كانت كبيرة في السن. ولم تجد *الطريق* قط.

***

تحاشى «بارادايز» «هولواي»، وبطبيعة الحال كرهته «جاين»، لأنها أرادت بشدة إخراس مخاوفها. وشعرت بالرضا لأن الطفلين صارا يتصرفان بشكل طبيعي الآن. كانت فكرة حالمة بعض الشيء، ولم يستسغها «بارادايز» البتة.

طفق «سكوت» يجلب الأدوات لـ«إيما» للحصول على موافقتها. كانت في العادة تهز رأسها معترضة. وتارةً تنظر إليها بتردد. وتارةً أخرى توافق بالإشارة. ثم تمر ساعة من الشخبطة المضنية والمجنونة على قصاصات دفتر الملاحظات، وبعدما يدرس «سكوت» الرموز، يرتب ويعيد ترتيب الأحجار وقطع المعدات وأطراف الشموع والخردة المتنوعة. وكل يوم تنظفها الخادمة، وكل يوم يبدأ «سكوت» من جديد.

تطوع بتوضيح الأمر قليلًا لوالده المتحير، الذي لم يرَ نظامًا أو منطقًا في اللعبة.

- ولكن لماذا هذه الحصاة موضوعة هنا؟

- إنها صلبة ومستديرة، يا أبي. إنها في مكانها الصحيح.

- وتلك الحصاة صلبة ومستديرة أيضًا.

- حسنًا، لكن بها مادة «الفازلين». عندما تصل إلى هذا الحد، لا يمكنك أن تراها مجرد شيء صلب ومستدير.

- ما الذي يأتي بعد ذلك؟ هذه الشمعة؟

بدا الاستياء على وجه «سكوت»:

- هذه تأتي في النهاية. الحلقة الحديدية هي التالية.

تراءى لـ«بارادايز» أنها مثل مسار الكشافة في الغابة؛ علامات في متاهة. ولكن هنا يبرز العامل العشوائي مرة أخرى. إن التفكير المنطقي المألوف يعجز عن فهم دوافع «سكوت» وراء ترتيب تلك الأشياء بهذا الشكل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرج «باراداين». ومن وراء كتفه أبصر «سكوت» يسحب من جيبه ورقة متجعدة وقلمًا ويتجه نحو «إيما» التي جلست القرفصاء في زاوية الغرفة وأخذت تفكر.

حسنًا...

كانت «جاين» تتناول الغداء مع العم «هاري». ولم يجد «باراداين» أمامه سوى قراءة الصحف في ذلك الجو القائظ لعصر يوم الأحد. استقر في أبرد بقعة ممكنة، وأخذ يتصفح مجلة «كولينز».

بعد ساعة، أيقظه من غفوته وقع أقدام قادم من الطابق العلوي. وصوت «سكوت» يصرخ بفرح:

- انتهى الأمر، أيتها الحلزونة! هيا...

نهض «باراداين» بسرعة مقطبًا. ولم يكد يدلف إلى القاعة، حتى دق جرس الهاتف. كانت «جاين» قد وعدته بالاتصال...

كانت يده على السماعة، عندما صرخ صوت «إيما» الخافت بحماس. عبس «باراداين». ما الذي يحدث في الطابق العلوي بحق الشيطان؟

هتف «سكوت»:

- انتبهي! من هنا!

وبفم فاغر وأعصاب متوترة نسي «باراداين» أمر الهاتف، وصعد راكضًا الدرج. كان باب غرفة «سكوت» مفتوحًا.

كان الطفلان يتلاشيان كدخان كثيف في الريح، أو كحركة في مرآة مشوهة! سارا متشابكي الأيدي في اتجاه عجز «باراداين» عن فهمه، وحين دقق النظر... كانا قد اختفيا!

قال وقد جف حلقه:

- «إيما»! «سكوتي»!

على السجادة كان هناك شكل مُكوّن من علامات، وحصى، وحلقة حديدية، وخردة؛ نمط عشوائي.

طارت نحو «بارادايز» ورقة متجعدة. التقطها تلقائيًا.

- أين أنتم، يا أطفال؟ لا تختبئا...

- «إيماااااا»! «سكوتيييييي»!

كف الهاتف في الطابق السفلي عن الرنين العالي الممل. ونظر «بارادايز» إلى الورقة في يده.

كانت ورقة ممزقة من كتاب، تحتوي على تعليقات وملاحظات هامشية بخط «إيما» غير المفهوم. وثمة فقرة معينة وُضِع تحتها خط وكُتِب عليها بشخبطة فصارت غير مقروءة تقريبًا، لكن «بارادايز» كان على دراية تامة برواية «أليس في المرآة»(13). وأسعفته الذاكرة بالكلمات:

كان الوقت الرابعة عصرًا، والغرائر الملساء

تحفر في الوايب(14) وتدور حول نفسها

كل المبغاوات كانت حزينة

والسلاحف الخطيرة تصر

وفكر بغباء أن «همتي دَمتي»(15) شرح هذه الأبيات. «الوايب» هي: القطعة المعشوشبة المحيطة بالساعة الشمسية... الساعة الشمسية. الزمن... إن لها علاقة بالزمن. منذ وقت طويل، سألني «سكوتي» عن معنى «الوايب». رموز.

كان الوقت الرابعة عصرًا ...

صيغة رياضية مثالية، لو تهيأت لها جميع الظروف، مكتوبة برموز فهمها الطفلان أخيرًا. الخردة على الأرض. يجب أن تكون الغرائر(16) ملساء، أيقصد أن بها «فازلين»؟ ويجب وضعها بصورة معينة، حتى تحفر وتدور حول نفسها.

جنون!

ولكن لم يكن هذا جنونًا بالنسبة لـ«إيما» و«سكوت». كانا يفكران بشكل مختلف، مستخدمين المنطق «إكس». وتلك الملاحظات التي خطتها «إيما» على الصفحة هي ترجمة لكلمات «كارول» باستخدام رموز يفهمها الطفلان.

لقد فهم الطفلان «العامل العشوائي»... وحققا شروط «معادلة الزمكان». ***والسلاحف الخطيرة تصر...***

شهق «باراداين» برعب. وحدق في «النمط الغريب» على السجادة. ليته يفهمه، مثلما فهمه الطفلان! ولكنه لا يستطيع. لم يز أيّ معنى في النمط. لقد هزمه «العامل العشوائي». كان عقله معتاد تفكيرنا المألوف.

حتى لو جُن، فسيظل عاجزًا لأنه ليس النوع المطلوب من الجنون.

شُل عقله. ولكن بعد هنيهة، نفض عنه الرعب والذهول. وسحق الورقة بين أصابعه. ونادى بصوت ميت، كأنما لا يتوقع أيّ رد:

- «إيما»! «سكوتي»!

تسللت أشعة الشمس عبر النوافذ المفتوحة، ملقية بضوئها الذهبي على فرو دمية السيد «دب». وفي الطابق السفلي، شرع جرس الهاتف يدق مجددًا.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المؤلفان

«لويس بادجيت»: هو الاسم المستعار للكاتبين والزوجين: «هنري كتنر» و«كاثرين مور». وتحت هذا الاسم أصدرا العديد من القصص القصيرة في مجال الخيال العلمي في الأربعينيات والخمسينيات، ومن بينها: «الروبوت الفخور»، و«العالم ملكي»، و«الخزانة الزمنية»، و«ما تحتاج إليه»، و«التلفزيون العجيب».

«هنري كتنر» (1915-1958): هو كاتب أمريكي للخيال العلمي والفانتازيا والرعب. وكان صديقًا للكاتب «هوارد لافكرافت»، الذي شجعه على دمج عناصر من ميثولوجيا «كثولو» في أعماله، وقد فعل «كتنر» ذلك في قصص مثل: «رعب سالم» (1937)، و«هايدرا» (1939).

أما «كاثرين مور» (1911-1987): فهي كاتبة أمريكية للخيال العلمي والفانتازيا، وتُعد من أوليات النساء اللاتي كتبن في هذا المجال. وتتميز أعمالها بالتغلغل في الجوانب الاجتماعية والنفسية.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

المترجمة

رفيدة جمال: باحثة ومترجمة مصرية، حاصلة على درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي بجامعة حلوان. شاركت في العديد من النصوص المُترجَمة في صحيفة «أخبار الأدب»، ومجلات: «عالم الكتاب»، و«الدوحة»، و«الفيصل»، و«الهلال»، و«الثقافة الجديدة»، وغيرها. كما ترجمت رواية «الحديقة المنسية» للكاتبة الأسترالية «كيت مورتن» عام 2021. صدر لها عن دار «منشورات ويلز» ترجمة قصص: «الحشرة الغريبة» لـ«هوارد فاست»، و«عشاء مريخي» لـ«فيليب ك. ديك»، و«جاء من الفضاء البعيد» لـ«جورج آلن إنجلاند».

الملاحظات

[←1]

«جابروكي» (Jabberwocky): هي قصيدة قصصية للكاتب الإنجليزي «لويس كارول»، وردت في رواية «أليس عبر المرآة» (1871)، وتحكي قصة شاب يخرج لقتل وحش مخيف يُسمى «جابروكي»، وموضوعها الأساسي هو الصراع بين الخير والشر. وقد نالت إعجاب القراء والنقاد لبراعتها الفنية ولغتها المبتكرة؛ إذ تحفل بالعديد من الكلمات المختلقة وتزخر أبياتها بالسجع والجناس.

[←2]

المفرد «شرغوف» (أبو ذنيبة)، يرقة الضفدع ولا تعيش إلا في الماء، وتمثل المرحلة الثانية من دورة حياة الضفدع.

[←3]

«تشارلز بروتيوس شتاينميتز» (1865-1923): عالم رياضيات ومهندس كهربائي ألماني الأصل.

[←4]

بيت من قصيدة «الطفل العبقري» للشاعر الإنجليزي «ويليام جلبرت».

[←5]

سلالة من الكلاب.

[←6]

(rales) وتعني خرخرة.

[←7]

الكلمتان وايب (wabe) ووايف (wave) متشابهتان في النطق.

[←8]

«ريتشارد هيوز» (1900- 1976): شاعر وروائي بريطاني.

[←9]

يقصد أن هذه الشبكة المضيئة قد تكون موجودة داخل أجسادنا، لكننا لم تخترع بعد الصبغة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ